

الأستاذة : فاطمة الزهراء سيدهم.

أستاذة بجامعة معسكر.

العزم والحزم في فلسفة الأمير في مواجهة الغزاة والخونة.

بزغ نجم عبد القادر بن محيي الدين الهاشمي بعدما هوت دولة الداوي حسين , وأفلت سلطة العثمانيين في كسوف لم يكن يتوقعه أحد داخل الأيالة ولا خارجها , وسلم الداوي المهزوم السلطة للغزاة الذين جعلوا من بسط نفوذهم على العاصمة ومينائها وأبراجها وقشلاتها ومرافقها العامة مُطلقاً لتنفيذ ما تعهد به ملك فرنسا شارل العاشر, في جعل الجزائر امتداداً للمملكة الفرنسية ولو كانت تبعد عنها جغرافياً عدة أميال.

بدأت مدن وقرى الجزائر تسقط تباعاً على يد الجيش الغازي , ولم تصمد قوات البايك إلا لفترات محدودة, وننتج عن ذلك بسط وتوسيع نفوذ الفرنسيين على مناطق عديدة من التراب الوطني, وهو ما أدى إلى نزوح كثير من العائلات والأسر إلى داخل الوطن بحثاً عن الأمن والأمان, غير أن عصابات قطاع الطرق والسراق تصدّت لهم, وأصبح المواطن البسيط بين نار الفرنسيين واعتداء المجرمين الذين عاثوا فساداً في البلاد دونما شفقة ولا رحمة. ولما بلغ مسمع الشيخ محيي الدين ما يتعرض له الأهالي من تعدّ على ممتلكاتهم وأرزاقهم جهّز حامية من الفرسان للتجول وبسط الأمن في سهل غريس وحماية البدو المشردين وتقديم الدعم لهم , وحملهم إلى أماكن آمنة لا تصل إليها عصابات اللصوص وقطاع الطرق, لكن ذلك لم يكن كافياً لتأثيره الضعيف على جموع قبائل البدو. رأى أعيان البلد من علماء وفقهاء ومرابطين أنه بات من الضروري إخضاع البلد لسلطة قوية تخلف سلطة البايك المتهاوية. وتقدم هذا الجمع المبارك طالبين من الشيخ الهاشمي محيي الدين ترأس الجهاد ضدّ الغزاة الذين عاثوا فساداً في الديار الإسلامية.

الموقر ذكرهم أنه قام منذ عدة شهور بالمحافظة على درجة من النظام وسط الفوضى العارمة التي تعيشها بلادنا جراء الغزو الفرنسي , واستقالة حكومة الداوي , وانتشار الأمن في القرى والمدن, لكن ذلك لم ينفع في إنقاذ إلا العدد القليل من الضعفاء والمشردين وحمايتهم من أيدي أناس قساة. وإذا استمر الوضع على ما هو عليه فإن قدراتنا ستحطم, وتتحل أواصر مجتمعنا... كما أن النكبات التي تهددنا من الخارج هي أكثر خطراً بعدما ينتشر الوهن في نفوسنا, لأن الفرنسيين أمة مقاتلة لهم تجارب كثيرة في ميدان القتال. أما نحن فكثير من القبائل على خلاف مع بعضها, وشيوخ القبائل يتآمرون ضدّ بعضهم البعض ويتصارعون من أجل الثروة الشخصية... (2)

إن الغزاة إذا دخلوا قرية أفسدوها, والجزائريون في وضعهم الحالي لا يمكنهم مواجهة الفرنسيين إلا عن طريق سلطان المغرب المولى عبد الرحمن الذي عبر عن عاطفته نحو الجزائر, وحضوره بيننا سيدعمنا بإذن الله. وبهذا يكون الشيخ محيي الدين قد حاول إسناد قيادة مجاهدي الجزائر للملك المغربي, ودلهم بلطف إلى ما قد يقوم به المولى عبد الرحمن من دور في قيادة الجهاد الوطني. لكن عبد الرحمن بن هشام (1) كانت له حساباته الخاصة. وكان قد واجهه قاضي فاس عبد الهادي بن عبد الله العلوي حول تدخله في شؤون أليالة تخضع شرعاً للدولة العثمانية (3)

ضرورة لم شمل الصفوف.

مضت سنتان على غزو الجزائر والمجاهدون يضايقون الفرنسيين بوهران ، وكان لتصرف القوات المغربية وقع سيء في نفس الشاب عبد القادر عندما استتجد بهم الأهالي، وكان هذا التصرف بداية تكوين ملامح فلسفية لدى الأمير عن فلسفة ولامح المقاومة مستقبلا.

اندفع الأهالي لمقاومة الغزاة , ورغم شجاعة الشجعان منهم, إلا أن الصورة كانت في مخيلة الحاج عبد القادر متشابكة الخيوط , وألوانها غير واضحة , لأن الكفة غير متكافئة بين المجاهدين وبين عساكر فرنسا, فهذا جيش له باع في قيادة المعارك , وهذه جموع المجاهدين يعتمدون على شجاعتهم وإقدامهم وسلاحهم البسيط , وهم غير منضوين تحت قيادة واحدة.

كان الحاج عبد القادر يتابع سياسة الحزب الليبرالي الفرنسي الذي كان يوافق ويؤيد من الصميم المبدأ الذي كان يدعوا إليه رئيس الحزب السيد دوبان, الذي استنكر مغامرة الغزاة واحتلال الجزائر بأمر من الملك شارل العاشر . وقد فهم عبد القادر من كلامه أن فرنسا كان عليها احتلال بعض المراكز الساحلية دونما احتلال لكامل البلاد. وعندما رأى عبد القادر أن البرلمان الفرنسي رفض التصويت على إرسال أكثر من ثلاثين ألف جندي للجزائر بعد نكبة هزيمة قسنطينة, ودعا للجلاء حالا عن الجزائر, اعتقد أنه مع الكثير من المثابرة ولم شمل قبائل المنطقة وتنظيم صفوف المجاهدين سيكون قادرا على تحقيق الفكرة التي تشكلت لديه في إقامة دولة مستقلة, وإبعاد الغزاة عن البلاد.

أما الصورة الأخرى التي تركت أثارا بارزة في فكر وفلسفة الشاب عبد القادر فهي اختلاف علماء فاس حول مطلب سكان تلمسان قيادة المجاهدين الجزائريين , وتأخر وفادة حامية مغربية تحت إمرة الشاب علي بن سليمان ابن أخ السلطان القليل الخبرة الذي كان عليه حث القبائل على الدخول تحت طاعته من أجل تحرير البلاد من الغزاة, غير أنه عكس ما توقعه الجميع أطلق العنان لجنوده في النهب والقتل وملاحقة القبائل.

لما تولى الأمير إمارة المجاهدين كانت فلسفته واضحة المعالم, وهي التي سيُدخل عليها بعض التعديلات حسب المواقف والأحداث التي ستقع مستقبلا , لأن القائد حديث العهد بالقيادة, والمأمورية ثقيلة , وذوي النفوس من الأعراب جشعين لا عهد ولا أمان لكثير منهم, وشرهم عظيم حينما يتواطؤون مع العدو.

يقول المؤرخ أوغستان برنار Augustin Bernard "... أظهر الأمير بعد أن أسند إليه الأمر, على الرغم من أنه ابن الزوايا والطرق, حنكة سياسية وبراعة عسكرية فائقة , وكان يتمتع بصفات تدل على أنه خُلق ليحكم, فكان بسيطا في لباسه , متواضعا في عشرته , أنيقا جميلا شجاعا فارسا, وكان له هدوء الدبلوماسي المسلم وسكينته ولباقته , وكان متدينا عن إخلاص ومن صميم فؤاده, ولم يطلب الإمارة لإشباع أطماع نفسه بل ليقود أمتة في طريق الفلاح... (4)

وقد تولى الأمير السلطة بالجزائر على الطريقة لشرعية , بعدما اقترحه والده لتولي الإمارة, ثم بايعه العلماء والأعيان والشرفاء المبايعة الأولى التي وقعت بوادي فروحة عند شجرة الدردارة من بلاد غريس, والبيعة الثانية لعامة القبائل والناس. ومنذ مبايعة عبد القادر أمير المؤمنين من غير طلب منه في شوال 1248هـ/فبراير 1832م أصبحت دولته هي الدولة الشرعية الإسلامية الوحيدة في الجزائر.

وبعد البيعة مباشرة وإعلان قبيلة الحشم وبنو عامر وحميان الدخول في طاعته, خرج الأمير في جولة ميدانية لتوحيد الجبهة والدفاع عن الوطن , وإصلاحا بين القبائل ليكونوا صفا متراسا في مواجهة الغزاة.

أول احتكاك بالفرنسيين.

كان الأمير قلقا عند مبايعته من عدم الحركة, خوفا من أن ينتشر الملل في نفوس أصحابه, فخرج ذات ليلة مع مائة فارس ونصب كميناً بالقرب من وهران اعتاد الفرنسيون أن يرسلوا خلاله نجداتهم من الفرسان إلى المواقع الأمامية . فقتل بعضهم وأسر منهم ثلاثين عسكرياً, ثم انسحب بكامل رجاله. لقد كانت هذه العملية مبعثاً للثقة والأمل عند الجميع.

ولما كان الأمير في جولة عبر التراب الوطني لتفقد الرعية وإخضاع القبائل المتمردة, انتهز الجنرال ديميشال فرصة غياب الأمير عن مدينة معسكر واحتل قرية الدبة الواقعة بسهل تليلات وأسر أهلها. ولما علم الأمير بالخبر أسرع إلى استرجاع القرية, واتبع في معركته أسلوب الكر والفرّ لكون جيشه كان قليل العدد وقليل الخبرة القتالية, وهو ما جعله ينتصر في أول احتكاك بالغزاة . وأمام هذا الانتصار على عدوه جاءه الم رابط الحاج ابن عيسى يبايعه وأحضر معه نواباً يمثلون عشرين قبيلة في الصحراء, وهو فعل سرّ له الأمير كثيراً, لأنه سيوسع من منطقة نفوذه ويدعمه بالرجال والمال المجتبي من الزكاة.

الدين عامل وحدة.

كان الأمير يؤمن بضرورة الإتحاد المطلق بين مواطنيه, ولما استقبلت معظم القبائل نداه بالدخول تحت طاعته بمواقف مختلفة, فكان منهم من قرّر مقارعته بالسيف مثل الم رابط سيدي العربي الذي له تأثير مطلق على قبيلة فليئة في سهل الشلف, كما رفض الغماري ببني أنجاد, ومحمد بن نونه حاكم تلمسان طاعته لاعتبارات عديدة . ومقابل هذه الآراء التي لا تخدم وحدة الصف في مقارعة العدو, وبناء دولة قوية , تقدم أمير المؤمنين إلى القبائل الجزائرية بفكرة بسيطة وعظيمة التأثير على النفوس في نفس الوقت وهي فكرة قومية عربية, وهذا لما كان يعتقد أنه بعضاً من القبائل ستوقظ فيهم الفكرة القومية ردّاً إيجابياً ويستفيد من ذلك في إقامة أسس دولته. كما كان يؤمن أن ما لم يحققه حبّ الوطن, ستحققه الغيرة على الدين, لذلك كان هذا العنصر الأخير ركيزة الأساس في بناء الدولة التي يتصورها. (5) ولما كان الأمير ذا حزم وعزم وشجاعة وعقل سليم, غير متردد في تنفيذ الأحكام الشرعية في كل الأحوال والظروف, وبحق الأشخاص والقبائل, وغيّر متسامح مع الأعداء, فقد جمع قوة كبيرة وأغار على القبيلة المنشقة, وأقلع خيامهم وقبض على الأسرى, وساق ماشيتهم. وحتى يأمن سيدي العربي من انتقام الأمير فقد تعهد كتابة بالطاعة. (6)

الإستعانة بالجواسيس.

حتى يكون الأمير عبد القادر معروفا لدى مجالس الفرنسيين أكثرهم نفوذا وتأثيراً في اتخاذ القرار الذي قد يعود على الأمير بالنفع المادي, وعقد صفقات تجارية رابحة لشراء ما يحتاجه جيشه من سلاح وبارود ومدافع, وفي تبليغ واقتراح أفكار وآراء تبني عليها اتفاقيات بين الطرفين, فقد جند عملاء قادرين على اختراق صفوف الحكام الفرنسيين ليُعرفوا بآرائه والإقناع لكسب ثقة أهم الشخصيات

المدينة والعسكرية. وأن يمدحوا باستمرار سلوك وعمل الأمير. وكان اليهودي دوران Duran الذي كلف بالمأمورية قد قام بدوره على أحسن وجه، مقابل أموال طائلة، وقد استطاع أن يجعل ديرلون يستمع إليه، وأصبح الحاكم الفرنسي يميل إلى عبد القار واستخلص منه معاهدة تسمح له في مادتها الرابعة شراء كل ما يحتاجه من مدافع وبنادق وبارود وكبريت.

مواجهة العصاة.

كانت بين طائفة الكراغلة والحضر بتلمسان تنافر وبغضاء سببها التعصب والتنافس على السلطة بالمدينة. كان الكراغلة قد وقفوا في بعض الأوقات مع الأمير معتقدين أنه سيخدم ويحافظ على مصالحهم التي تحصلوا عليها من الإدارة العثمانية، ولما علموا أن الأمير لا يحابي أحدا، ولا يجمال فرقة على حساب فرقة أخرى فقد شقوا عصا الطاعة ودخلوا تحت لواء الفرنسيين خوفا من زوال امتيازاتهم. كما عصا الحضر وأمر الأمير وتزعمهم المسمى بنونة فسلك الأمير معهم اللين والمطاوعة ولكنهم تمادوا في عصيانهم وأحدثوا الفتنة، فقاتلهم الأمير ودخل تلمسان منتصرا عام 1249هـ/1833م.

لما اعتدى الجنرال ديميشال على قبائل الزمالة والدوائر وسلبهم أرزاقهم، توجه الأمير على رأس قوة لنجدة القبائل، وكان له النصر على عدوهن وحرر النساء والأطفال من قبضة الفرنسيين. وحتى يأمن أهل القبيلتين بالأمان نقلهم مع مواشيهم وممتلكاتهم إلى ضواحي تلمسان.

لما كانت قبيلتا الدوائر والزمالة عرضة باستمرار لغارات الغزاة على قراهم ومواشيهم، ولم ينعموا بالأمن والأمان إلا قليلا فقد رأوا أن يضعوا أنفسهم تحت العلم الفرنسي فوقعوا مع الجنرال تريزيل المفوض من قبل الوالي العام بالكرمة يوم 16 جوان 1835 م تعترف فيها القبيلتان بسيادة ملك فرنسا، ويدفعان لمدينة وهران الضريبة السنوية، وتجهز القبيلتان القوات للمشاركة في بعض الحملات العسكرية في المقاطعات الإفريقية (7) كانت سياسة الأمير لا تستطيع صبرا على هذا الخرق الذي قد تكون له عواقب وخيمة على مملكة الأمير، ودعوة صريحة لقبائل أخرى قد تعاني من نفس ظروف هاتين القبيلتين، وتتخذ لنفسها ذرائع وترتمي في أحضان الفرنسيين، لأن معاهدتهم مع الفرنسيين تعتبر خرقا فاضحا لمبادئ الشرع الحنيف، وأن القرب من العدو ليس مبررا لطاعته ودفع الضريبة له وخيانة الأمة، والمشاركة في صفوف جيوشه، بل يجب أن تصابر هذه القبائل وتضطرب وتطلب العون والمدد من الأمير الذي هو حامي الملة والدين.

إن الفعل الشنيع الذي قامت به قبيلتا الزمالة والدوائر مخالف تماما لما بايعت عليه القبائل الأخرى الأمير، وهو مخالف تماما للرسالة التي تعهد على حملها وأقسم على تحقيقها، ومادام على صواب وإيمانه برسالته راسخا قويا لا يتزعزع ويطغى على روحه في قوة اقتناع ديني، فقد اختار الحل الذي يصون كرامة الأمة، ويذود عن وحدتها، والمحافظة على جبهة وطنية موحدة للوقوف في وجه الفرنسيين، لأن سياسته كانت تهدف مراعاة المصلحة المشتركة، وأنه هو وحده المخول شرعا وقانونا بعقد المعاهدات والسلام، ولا يهمه بعد ذلك انتقاد المشككين في نجاعة سياسته. وقد ذاق قبائل الدوائر والزمالة هذا النوع من الامتثال لأوامر الأمير.

ولما كان الأمير ما يزال يرغب في المحافظة على السلم مع الفرنسيين خدمة لمصالح الدولة الفتية، أعطى أوامره لأتباعه بتجنب استخدام العنف إلا في حالة الدفاع عن النفس، واكتفى بالكتابة إلى

تريزل محتجا على عقده معاهدة مع الدوائر والزمالة ، الذي يرى فيه خرقا لمعاهدة ديميشال. وذكره في مراسلة أخرى : "إن الدوائر والزمالة هم رعييتي، وبناء على قانوننا فإن لي الحق في أن أفعل بهم ما أشاء...إنني لن أرفع يدي عن قبائل الزمالة والدوائر، حتى ولو دخلوا وراء حصون وهران إلا بعد أن يندموا ويتوبوا...فاختر ما يلحق لك أو أن آلة الحرب ستحكم بيننا." (8) شعر الجنرال تريزل بالغيض أمام السهولة التي كان الأمير يُحقق بها أهدافه على حساب الشرف الفرنسي ، وما كان في وسعه إلا أن يخرق المعاهدة بطلقات المدافع. بدأت الحرب سجالا بين الطرفين إلى أن كتب الله النصر للأمير ووقعت نكبة وادي المقطع التي هزت الطبقة السياسية والعسكرية الفرنسية الذين سارعوا إلى استدعاء ديرلون وحل الجنرال دارلانج D'Arlange محل تريزل.

بينما كان القائد الفرنسي الجديد يفكر مليا حول طريقة القضاء على الأمير في ظرف شهرين أو أقل، كان الأمير يعمل بصمت وجدية تشوبها الشدة والصرامة، فحاصرت قوات الأمير مدينة الجزائر، وكانت وهران ومعسكر محصورتان بالبوغاز، وأصبح الجيش الفرنسي ساخطا على ما كانوا عليه من وهن. وقد أحس كلوزيل أن الحل الوحيد للخروج مما هو فيه هو بداية الحرب ضد الشاب عبد القادر. ولما كان التفوق الفرنسي في هذه المعركة، فإن بعض القبائل التي كان الأمير يعتمد عليهم قد تخلوا عنه لأسباب كثيرة. وبدأت حالة الأمير بائسة من النكسة التي لحقت به، وخروج الكثير من القبائل عن طاعته. لكنه بعد إرجاعه الأمر لله حاول تثبيت المنزعجين من رفاقه، وتشجيع المنهارين من المجاهدين، ولم ييأس من روح الله وأعاد تنظيم صفوفه وجمع شملهم، فانتصرت إرادة النضال وعادت الثقة من جديد في النفوس، واطمأنت بقضاء الله وقدره.

الأمير يتحدى الفرنسيين.

وجّه سكان مدينة المديّة ومليانة وفدا يطلبون منه أن يفعل في إقليمهم ما فعله في إقليم وهران ومناطق أخرى، من نشر للأمن والأمان وحماية السكان وأرزاقهم. وكانت في تلك الفترة بين الأمير وديميشال معاهدة تافنة التي لا تمنع الأمير من دخول إقليم تيطري. لكن الأمير تريث حتى يعرف موقف الجنرال من هدفه ، في الوقت الذي نشبت فيه مشاكل بين قبائل فليّة في وادي الشلف التي أثارها ضده سيدي العربي، جاءه رفض بدخول المديّة من الكونت ديرلون D'erlon الحاكم العام الجديد، وفي الوقت ذاته جاءته أخبار دخول الحاج موسى (وهو من أشرف الصحراء) دخول المديّة والإحتفاظ بها لنفسه. لكن الأمير واجهه بقوة ودخل المدينة ، وعيّن على الإقليم خليفتين عنه.

وأمام تصرف الأمير اقترح الجنرال تريزل إجراء مفاوضات مع الأمير بمدينة المديّة نفسها (9)

كان الأمير يتمتع بمكانة ممتازة سنة 1837م، حيث أمكنه التقدم بالشروط والمطالب في الوقت الذي كان فيه الفرنسيون في معاناة مستفيدين فقط من أرباح التجارة التي اعتبرها الفرنسيون مكسبا حققوه بفضل المعاهدة (10). وقد استغل الأمير تلك الظروف لاطلاعه على أحوال الحكومة الفرنسية لاطلاعه على ما تكتبه الصحافة الفرنسية ومناقشة البرلمان الذي رفض التصويت على أكثر من 30.000 عسكري بالجزائر، وكان الرأي العام بعد نكبة قسنطينة في صالح الجلاء عن الجزائر، إعتقد أنه مع الكثير من المصابرة والمثابرة سينجح في الحصول على الشروط التي تجعله قادرا على تحقيق مملكة عربية مستقلة. دعا الأمير إلى مؤتمر عام يجتمع على ضفة نهر الهبرة في 25 سنة 1837م للنظر في مسألة الحرب أو السلم مع الجنرال بيجو. وبعدما نجح المنطق قرر المؤتمرون بأغلبية كبيرة أن الفوائد التي

ستجنيها عامة الشعب من حالة السلام تبرر التنازل للفرنسيين عن مدينة البليدة وسهل الجزائر للفرنسيين. وقبل الأمير توقيع اتفاقية التافنة في 20 ماي 1837م. وبهذه المعاهدة أصبح الفرنسيون محصورين في بعض المدن الساحلية، مع مناطق مجاورة ضيقة، وأصبح الأمير يملك ثلثي الجزائر حسب المعاهدة. وقد زادت هذه المعاهدة الأمير صيتا واسعا، وأصبح أمام العالم كصديق وحليف الفرنسيين.

تحصل الجنرال بيجو على موافقة الأمير بمقابلته شخصيا، فكان له ما أراد في سهل فسيح. وقد جرى بين الشخصين محادثات سأل فيها الأمير الجنرال متى يسلمه مدينة تلمسان، فأخبره أن ذلك لن يتأتى له حتى يوافق الملك على الاتفاقية، حتى لا يلغىها من سياستي من بعده، ورأى الأمير في هذا التأخير تحويل المعاهدة إلى هدنة. ولما اطلعت الحكومة الفرنسية على المعاهدة اعتبرتها "ضربة معلم في السياسة"، لا اعتبارها أن الأمير تحول حسب المعاهدة من عدو إلى حليف. أما الأمير فاعتبرها حجر الزاوية في بناء دولته. وكان التنظيم الذي يحاول تطبيقه هو الدعامة لسلطة قادرة على مقاومة الهجمات الخارجية ولو مؤقتا، إلا أن ذلك يتطلب تقوية الواردات التي أصبحت تحت نفوذه. لكن الكثير من ذوي النفوس الضعيفة رأوا في إقرار السلام الامتناع عن دفع الضرائب، وكان سكان جنوب إقليم التيطري قد رفضوا دفع الزكاة الشرعية للدولة الأمير، فحاربهم الأمير وشتت شملهم، فجاءه زعيمهم ابن المختار طالبا الصفح عن الذنب، فعفا عنه الأمير وعينه خليفة له على قبائل المتمردين عوض أن يعاقبه. وبعد هذه الواقعة تراجعت كثير من القبائل المتمردة وأطاعت الأمير. كما وقع معاهدة مع التجيني بعين ماضي في نوفمبر 1838م الذي سينسحب إلى الأغواط. وولى ابن سالم خليفة له على جرجرة.

كان استمرار السلام مع الفرنسيين ضروريا بالنسبة للأمير، غير أن اختلافات كثيرة ظهرت بين الطرفين حول تفسير بعض بنود معاهدة التافنة، ومنها المادة السابعة التي يفسرها كل طرف حسب فهمه. الفرنسيون يدعون أن المنطقة الواقعة ما بين الجزائر وقسنطينة تتبع لسيادتهم، أما الأمير إذا تنازل لهم عن هذا الجزء من البلاد فسوف يشكل ذلك تقسيما لملكه وخطرا يهدد عرشه.

تولى الجنرال بوجو منصب الحاكم العام في 22 من شهر فبراير 1841م، وأعلن في تصريح له أنه يرفض فكرة الاحتلال الفرنسي المحدود ونادى بتوسيعه، عكس ما كان يعتقد الأمير أن يحصر الفرنسيين في المدن الساحلية ويحكم هو المناطق الأخرى من البلاد. وبدأت الحرب حامية الوطيس وتعرض الطرفان لخسائر في الأرواح، وواجه الأمير بكثير من الحزم قلة المؤونة، وتمرد الكثير من القبائل وخروجها عن طاعته بفضل نجاح الفرنسيين في شراء الذمم بالوعود تارة وبالرشوة وبالتهديد تارة أخرى. وكانت كل غارة من الفرنسيين تتبعها غزوة من الأمير، وفي شهر ماي 1843م وصل فرسان دوما الزمالة، وبسرعة شردوا أهلها الخائفين شيوفا وأطفالا ونساء، ولم تغن طلقات البارود لفريق من بني هاشم بشجاعة وقف الغزاة، فاكنتسح الجيش الفرنسي الزمالة، وسقط الجميع في الأسر، باستثناء بعض الأسر التي نجت من العدو منها عائلة الأمير التي استطاعت الفرار.

لقد كان الاستيلاء على الزمالة ضربة موجعة للأمير، فبعدما سقطت عاصمة دولته معسكر وكثير من المدن والقرى في قبضة النصاري، هاهي بدورها تسقط الزمالة، ولحسن الحظ لم يستشهد الكثير من رجاله.

ولما كان المولى عبد الرحمن يُكن التقدير والإعجاب لهذا الفتى الشجاع والقدير الذي أبهر العالم بشجاعته وحسن تدبيره وتخطيطه وتصديه لهجمات العدو ونصب الكمائن له في كل الظروف والأماكن

والنيل منه، وإرغامه على قبول شروط الصلح في الكثير من الأحيان، غير أن السلطان المغربي رغم إعجابه بالأمير إلا أن استقرار عرشه حتم عليه عدم مساعدة ودعم عبد القادر، لأنه يخشى من انتقام الفرنسيين .

لما كان الأمير يتخذ من التراب المغربي في بعض الأوقات الحرجة مكانا يستريح فيه من ملاحقة العدو له، فأقام الفرنسيون فرقة كبيرة من عساكرهم على الحدود الجزائرية المغربية بلالة مغنية لمراقبة تحركات الجزائريين. وبعدما حفر العسكر الخنادق وعلقوا معداتهم وندسوا مقام المرأة الصالحة انطلقت صرخة الغضب عبر التراب المغربي لهذا الفعل الشنيع في حق مقدسات المسلمين، فقرر المغرب إرسال فرقة من جيشه لعين المكان للثأر للدين الحنيف الذي أهين. وبعدما طلب القائد المغربي من الفرنسيين إجلاء المنطقة في ماي 1844م، وبعدما رفضوا طلبه وقع إشتباكان، إنهمز فيهما المغاربة ورجعوا إلى قاعدتهم بوجدة. وبعد مدة أرسلت الحكومة الفرنسية قطعة من الأسطول الفرنسي قصفت مدينة طنجة ومقادور بالقنابل، وبعدها وقعت معركة وادي إسلي، ومن بعد ذلك إتصل الجنرال بيجو بالقائد القناوي وتم الاتفاق على أن عبد القادر هو سبب الخلاف ما بين الطرفين، وطلبوا من المغرب تخليصهم منه، ومنعه من النزول بالأرض المغربية. واعتبرته المادة الرابعة من المعاهدة خارجا عن القانون في جميع التراب المغربي وفي الجزائر. لذلك ستطارده القوات الفرنسية من الجزائر، والقوات المغربية من المغرب إلى أن يُطرد أو يقع في قبضة إحدى الدولتين.

أمام تخاذل المولى عبد الرحمن غضب السكان المغاربة لموقف ملكهم المتخاذل نتيجة الإهانة التي لحقت بجيشهم، والمعاهدة المخزية التي وقعوها مع العدو، لذلك اتصل الأمير برسائل من مختلف الفئات والموظفين والعسكريين طالبين منه أن يكون ملكا عليهم. (11)

إن الأمير لم يكن يطمع في تولي السلطة حتى في بلده لثقل حملها، ورأيانه حينما تخلت عنه كثير من القبائل مما أدى إلى انهزامه، كيف أنه طلب منهم أن يُعفوه من ثقل المأمورية ويبايعوا سلطانا بدلا عن. ولما أصبح الشعب مُتحدًا تحت رايته، والطرق آمنة، وكان قد أقام السلم مع الفرنسيين بعث للملك المغربي رسالة يقول فيها: "...ونحن الآن نرجو من سموكم أن ترسلوا أحد أبنائكم أو خدامكم لتولي سلطات الحكم لأن البلاد الآن موطدة وليس هناك معارضة من أية جهة، وسأكون أول من يعمل تحت من ترسلونه..." (12)

لو كان الأمير مغتصبا عاديا للسلطة (13) لما كلفه الأمر، الآن حينما دعت القبائل والأفراد بطريقة اجماعية إلى تخليصهم من ملك متعامل مع الفرنسيين، أية مشقة.

الأمير عفيف النفس، مجاهد في سبيل الله، رجل يعرف حدوده ومكانته، وتربيته وخلقه لا يسمحان له بالتفكير لحظة فيما اتهمه به ملك المغرب.

بعدما جند المغرب إمكانيات ضخمة، عددا وعدة، أصبح وضع الأمير صعبا جدا، وأن دائرته ستسقط لا محالة. وقد أُنشِث أصحابه الذين لم يبق منهم سوى 1200 فارس و 800 راجل عن أفكار كثيرة راودته، وهو في ضعف ونهاية حربه ضد الفرنسيين قد إقتربت.

الهوامش.

1-السلامي(أبي العباس الناصري)الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى.ص:286-287.

2-العسلي(بسام),الأمير عبد القادر.ص:27.

3-إسماعيلي(مولاي عبد الحميد),تاريخ وجدة وأنكاد في دوحة الأمجاد.ص:103.

4-الجيلالي(عبد الرحمن بن محمد)تاريخ الجزائر العام.ج:4.طبعة 1995.ديوان المطبوعات الجامعية.بن عكنون.ص:63.

5-تشرشل(شارل هنري)نحية الأمير عبد القادر.ص:90.

6-تشرشل(شارل هنري),نفسه.ص:89-94.

7-قنان(جمال),نصوص سياسية جزائرية في القرن التاسع عشر 1830-1914.ص:96-98.

8-تشرشل(شارل هنري),نفسه.ص:133.

9-تشرشل(شارل هنري)ونفسه,ص:123-126.

10-بيرت(يوهان كارل),الأمير عبد القادر.ص:141.

11-السلامي(أبي العباس الناصري)ونفسه.ص:309.

12-تشرشل(شارل هنري)ونفسه.ص:203.

13-السلامي(أبي العباس الناصري),نفسه.ص:308.

المراجع.

1-الجيلالي(عبد الرحمن بن محمد),تاريخ الجزائر العام.ج:4.ديوان المطبوعات الجامعية.بن عكنون.طبعة 1995. عدد الصفحات:509.

2-السلامي(أبي العباس الناصري),الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. مجلد.3. تحقيق (عثمان(محمد). دار الكتب العلمية.بيروت.طبعة 2007. عدد الصفحات:527.

3-العسلي(بسام).الأمير عبد القادر الجزائري.دار النفائس.طبعة 1983. عدد الصفحات:183.

4-إسماعيلي(مولاي عبد الحميد العلوي),تاريخ وجدة وأنكاد في دوحة الأمجاد.ج:1. طبعة 1985. مطبعة النجاح الجديدة.الدار البيضاء. عدد الصفحات:278.

5-بوطالب(عبد القادر),الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية- من الأمير عبد القادر إلى حرب التحرير- منشورات دحلب . الجزائر.طبعة:2010. عدد الصفحات:351.

6-بيرنيت(يوهان كارل),الأمير عبد القادر.ترجمة وتقديم(دودو(أبو العبد).دار هومة.طبعة 2009. عدد الصفحات:232.

7-تشرشل(شارل هنري), حياة الأمير عبد القادر. ترجمة وتعليق:(سعد الله(أبو القاسم). عالم المعرفة للنشر والتوزيع.دار الرائد. طبعة 2009. عدد الصفحات:419.

8-زوزو(عبد الحميد), مراسلات الأمير عبد القادر مع الجنرال دي ميشيل-ووثائق خاصة بتاريخ الجزائر في عهد الأمير- دار هومة. طبع 2009. عدد الصفحات:171.

9-قنان(جمال).نصوص سياسية جزائرية في القرن التاسع عشر 1830-1914. ديوان المطبوعات الجامعية.طبعة 2009.بن عكنون. عدد الصفحات:300.

